«حملات شعوب»، وان التوسّع الغربي هو «اهتداء شعب الى أرضه»، نكون لامعقولين حقاً، ولكن ليس بالمعنى الذي يصفنا به الغرب، ذلك الذي يرانا «معقولين» في حالة واحدة: الاختفاء من على سطح الأرض.

ان لنا حجرنا؛ اي ان لنا قوة الأمر الواقع أيضاً، ليس ذلك الذي تفرضه الحاميات العسكرية، بل ذلك الذي تفرضه مقتضيات الجغرافيا السياسية لشعب تجزّأ فأصبح فيه الفلسطيني أقلية بالنسبة الى المستوطن الغربي، بينما هو، في الحقيقة، أغلبية ساحقة حين يؤكد انتماءه القومي الى محيطه.

تجاه هذا المحيط وحده يشعر المستوطنون باليأس والكآبة. وليس يأسهم وكآبتهم مسألة «أدبية» او ثورة في شكل القصيدة، او تطوراً في الحساسية الثقافية؛ انه، قبل كل شيء، استيقاظهم من الحلم وتأكدهم من ان التوراة ليست الّا ورقاً وحبراً، لا أرضاً للسكن. ترى من يستطيع ان يسكن في كتاب؟ الا يدّمر يومياً بعد اليقظة كل يوم؟

حاولت الكتابة الغربية ايجاد مشابهات بين الاوصاف التوراتية ولحم ودم الواقع الراهن؛ ولكنها، الآن، تتخلّى عن هذه المشابهات وتلجأ الى ما هو اكثر اقتراباً من عقلانية القرن الراهن، الى التخوّف من ان تشبه اسرائيل جنوب افريقيا، او من ان تشبه اسبارطة المعزولة التي ماتت وتداعت، وهكذا. ولماذا التخوف؟ أليس هذا هو الوجه الذي يرتسم به الواقع الاستيطاني؟ الّا انهم لمثاليون الى درجة خطيرة، الى درجة انهم يتجاهلون ان الواقع في اذهانهم يسير مقلوباً، فيخشون من ان يحدّقوا فيكتشفوا كيف انه كان، وما زال، يسير بشكله الاعتيادي منذ الطوفان.